إحتضـار معتقـدات وتولـد معتقـدات

قامت المدنيات القديمة على معتقدات قوية – كما يقول جوستاف لوبون – سـواء كانت هذه المعتقدات دينية أم سياسية وبقيت هذه المدنيات قوية الدعائم متينة البنيان لأن المعتقدات التي تأسست عليها كانت متأصلة في النفوس وفي مأمن من البحث والنقد الذين يولدان الشك والريبة. وهذه المعتقدات قد تضمنت أخطاء وخرافات لا يقبلها العقل بحال من الأحوال وأن اطمأنت إليها المشاعر في أغلب الأحوال. وإذا خالط الشك النفـوس في معتقد ما وكان هذا المعتقد أساساً لمدينته فقد أن الأوان لانيارهما معاً ونحن نشاهد – في عصرنا هذا – أن جميع العقائد القديمة التي اطمأنت لها النفوس أجيالا طويلـة أخـذت تتزعزع رويداً رويداً وتتزحزح عن مكانتها الأولى شيئاً فشيئا.

والإنسان بطبعه وبحكم العاطفة الدينية التي تملأ جوانب نفسه يتشوف دائماً لمعتقـد يسلم إليه نفسه وإيمانه ولهذا نجده يعتنق المذاهب الاجتماعية والآراء السياسية ويبـذل في سبيلها من نفسه ما كان يبذل سلفه القديم في سبيل الله أو قيصر، غير أن رأياً من هـذه الآراء أو مذهباً من هذه المذاهب لم يستقر بعد في النفوس كما استقرت الآراء والمذاهب القديمة ولم ينطبع بذلك الطابع الديني المقدس الذي يجعل بحث المذهب أو نقـده كفـراً وخيانة. فعصرنا فترة بين اعتقادات ومعتقدات تحتضر وتفنى وبين آراء ومذاهب أخرى لم تستقر استقراراً تاماً وتأخذ مكانتها من النفوس، فهو عصر اضطراب وتردد لا مثيل لهما في التاريخ، اضطراب في الآراء التي تتصارع للحياة والاستقرار والفوز وتردد بين مذاهب يناقض بعضها البعض الآخر ويحاول القوى منها محو الضعيف المتداعي وهكـذا فـنحن نشاهد أنه لا يظهر كتاب يدعو لعقيدة من العقائد حتى يظهر آخر يسخف هذه العقيـدة وينحى عليها أشد الأنحاء ثم لا يلبث أن يؤلف ثالث يتوسط الرأيين المتناقضين برأي ثالث وهكذا

ليس ثمة شك في أن استقرار الحياة وثبات المدنيات وسير الأمور في مجراها الطبيعـي خير من ذلك الاضطراب المروع. ولكننا مع ذلك لا نبتئس بقروب زوال المعتقدات البالية ولا ندعو المفكرين إلى الكف عن بحثها ونقدها لتتحفظ بما لها مـن القدسـية والمهابـة

ولتضمن لنا حياة هادئة وديعة، ذلك لأننا نعتقد بأن هذا الاضطراب نتيجة لا حيد عنها تحدثها الطبيعة لتقدم العمران كما نعتقد أنه مظهر للتقدم العقلي ومقياس صادق للتطـور الذي يطرأ عليه بين حين وآخر. فالعقل يهدم المعتنقات القديمة لأنه أصبح لا يـسيغها أو لأنه ارتقى لدرجة أصبح نقده لهذه المعتنقات فيها ضرورة لازمة لا دخل فيها للاختيـار والتدبر. ومثله في ذلك مثل الشيب الذي يعلو الرأس إذا ما كبر الإنسان، وعليه فمناهضة الحركات التجديدية إنما هي مناهضة لإحدى سنن الطبيعة التي لا تناهض ولا تغلب

ونحن أيضاً نتشاءم من تزعزع الإيمان بالمعتقدات القديمة ولا نميل إلى التـسليم بـأن عاقبة ذلك خراب العالم كما يدعى كثير من المتشائمين. وكل ما في الأمـر أن هـو إلا ترميم في الأساس أو هو بنيان أساس جديد متين لا نتسرع في تشيده بـل نتـرك ذلـك للتطور والزمان وهما كفيلان بأن يحققا لنا ما نحلم به من غير أن نلجأ إلى الثورات الـتي تفوز بالمرغوب وتقهر الزمان في الظاهر بينما هي في الحقيقة والواقع ليـست إلا تخريبـاً واضطراباً لا يسفران إلا عن تقهقر ورجوع إلى نقطة الابتداء.

وهذه العجالة في وصف ما طرأ من الاضطراب على معتقداتنا تفـسر لنـا بعـض التفسير ذلك التطور الهائل الذي نلحظه في الآداب.

ففي الزمن الماضي يوم كانت الاعتقادات القديمة سائدة مستحوذة علـى المـشاعر والنفوس يتأثر با الخاصة كما يتأثر با العامة كان الأدباء – بكتبهم وقصصهم – يعبرون أصدق تعبير عما يتأثرون به من المعتقدات، ويكفيك لتقتنع بذلك أن تجيل نظرة في تلك المدات الضخمة التي كتبت عقب ظهور الإسلام لتشرح نصوصه الدينيـة أو لتجمـع أحاديث النبي وتفسرها بل يكفيك أن تقرأ دواوين بعض الشعراء من لم يكن لهم هـم إلا نظم الحكم الدينية أو مدح النبي أو التغزل الإلهي.

والأمر لا يختلف في الدين عنه في الاجتماع والسياسة فكثيرا مـا ألفـت الكتـب والقصص لتأييد مذهب أو نصر مبدأ أو بث دعوة.

فلما أخذت الاعتقادات القديمة في الفناء وأخذ العقل يسلط نوره عليها فيظهر مـن عيوبا ويكشف عن سوءاتا التي عاشت ورسخت في النفوس أجيالا كحقائق لأمراء فيها، ولا جدال ولما حل الشك محل الإيمان، تأثر الأدباء بذلك التطور الذين هم مـن أكـبر

دعاته ومؤيديه بما يؤلفون من كتب تحمل على القديم تحاول أن تأتى عليه وتخلصنا مـن استعباده ورقه. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت بين أيدينا مجموعة وافية مـن الكتـب والقصص تبعث قراءتا على الشك في الماضي بآرائه ومعتقداته أو تدعو لمـذهب جديـد كالاشتراكية والعالمية وغير هما، والذي يجدر بنا أن نلاحظه هو أن جميع الأديان الجديـدة ترمى إلى اتحاد العالم وإزالة الفروق الوطنية وهي تتفق في ذلك مع الأديان القديمـة مثـل المسيحية والإسلام ولكنها تزيد على ذلك فيدعو بعضها إلى إزالة فوارق الطبقات المادية.

ولو أننا أردنا أن نتنبأ بالمذهب الذي سوف يكون له الفوز من بين المذاهب لقلنا – أو لأحببنا أن نقول – بأنه مذهب الاشتراكية، وذلك لأنا تـستهوى بوعودهـا أفئـدة الساخطين المتذمرين والفقراء وهم السواد الأعظم من سكان العالم ولأنا تـسد الـنقص الملموس الناتج عن التقدم العلمي وظهور المخترعات و الآلات، و لأنا وسط بين نظامين يتأفف منهما المتدينون وهما الشيوعية والفردية. وقد أخذت منهما حـسناتما ونفـضت عنها نقائصها الظاهرة.

وهنالك أسباب كثيرة أخرى تجعلنا نكاد نوقن بأن المستقبل للاشتراكية ولكن بحثها الآن لا يعنينا

ثم لا يفوتنا أن نذكر أن سعادة الاشتراكية الموعودة دنيوية تنال في هذه الحياة لا في حياة أخرى وأنا لذلك قد تعجز – لسبب من الأسباب – عن أنجاز وعودها تامة كاملة وعلية فينفض من حولها أعظم مؤيديها حماسة ونشاطا. ولكنا لا ننسى كذلك أن الكمال في الدنيا ضرب من المستحيلات وأنه وأن كانت الاشتراكية لن توصلنا لحالة من النعيم لا مطلب خلفها ألا أنا تستطيع أن تنتشلنا من حالتنا هـذه إلى خـير منـها، و ليـست الاشتراكية ناية ما يمكن أن يتطور إليه النظام الاجتماعي وعلية فالتطلع للأحسن سيدفعنا دائماً للتنقيب عما فيه سعادتنا ورفاهيتنا.

وجمله ما أريد أن أقوله عن هذا الأمر أنه لو خاب أملنا في الاشتراكية بعض الخيبـة فليس معنى ذلك أننا نرغب في الرجوع إلى حالتنا الأولى السيئة – الحالة الحاضرة – أنمـا يجعلنا ذلك نزيد إيمانا بالتطور الذي هو الخالق الوحيد للاشتراكية وغيرهـا مـن الآراء والعقائد.